وعاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت مهبط الوحى ، ومطلع شمس النبوة ، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم

واستغرق فى تفكيره فلم ينبهه إلا صوت مؤذن القوم يرنّ فى هذا الوادى الساكن : الله أكبر ، لا إلـه إلا الله ، فتردد نداءه هذه الصخور الشم . وتمد الابل أعناقها مصيخة هادئة ، ويهب البدو من منامهم ليقيموا الصلاة ، وأصحابنا السواقون ومعلموهم يغطون غطيط البكر . . .

ثم قاموا إلى الصلاة ، فامحى الخوف من نفسه ، وصغرت عليه البادية ، وهانت عليه مشاقها ، وتضاءلت هذه الجبال القاتمة حتى كأنما لصقت بالأرض ، وكأنما طويت له الغبراء فلم يعد ماق فى البادية على بعد ألف وثلثمائة كيل من منزله فى دمشق كحبة من الرمل ، أو هو أهون على الحياة منها ، لأنها وان طار بها ريح ، أو حملها سيل ، باقية كما كانت ، لا تموت ولا تندثر ، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز وكأس من الماء ، بل أحس كأنما هو فى منزله ، ولم لا ؟ وما يناله فى البادية إلا ما قد كتب عليه ، ولا ينال فى منزله إلا ما كتب له ، وإذا كان يأمن على نفسه اللصوص والأعراب ، وينام فى عرض الصحراء ، كما ينام فى أرض غرفته ، لا يمنعه باب ، ولا يحميه حارس ، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع ، لأنه فى حمى ابن السعود وأرضه ، أفلا يأمن من كان فى حمى الله رب ابن سعود وأرضه ؟

وكان القوم قد هبوا فأقبلوا يضمون الشاى والقهوة ، وجلست حيال صخرة أكتب هذه الكلمة « للرسالة » ، لأبث بها مع جندى من البدو إلى بريد العلا . . . . ولست أدرى أنخرج من هذه البادية فنقرؤها ، أم تبتلعنا هذه الصحراء التى ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً

وسيقرأ هذا الفصل قراء « الرسالة » وهم فى دورهم ومساكنهم ، لا يدرون ما الصحراء ، ولا يعرفون منها إلا ذكرها فى الكتب ووصفها فى الأشعار ، فيحسبونها تسلية أو خيالاً ، وما هى بالتسلية ولا بالخيال ، ولكنه مقام بين الموت والحياة ...

اللهم سلم !

على الطنطاوى

هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى ؟

أو الحقيقة هى العكس ؟

بقلم صالح بن على الحامد العلوى

اطلعت فى العدد الحادى والتسعين من « الرسالة » الغراء على مقالين أحدهما للأستاذ أمين الخولى ، والآخر للأستاذ على الطنطاوى ؛ وكلا المقالين دائر على مقال آخر قد نشرته الرسالة عن الامام الأوزاعى للأديب الفاضل عبد القادر الجاعونى

ولم يستثر كتابتى من هذا ولا ذاك شئ إلا نقطة واحدة طرقها الثلاثة وكانوا فيها جد مختلفين ، وكادت بل شاءت الرسالة ان تساهم فى المعمعة ولكن بايجاز وإيماء . والنقطة المختلف فيها هى ما جعلته عنواناً لأسطرى هذه وهى : هل تأثر الفقه الاسلامى بالقوانين الرومانية أم الحقيقة هى العكس ؟ إذ تعرض الكاتب الجاعونى فيما كتبه عن الأوزاعى لقولة كولد زهير بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى وقال : (إن كان هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة ، والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى) فكان الأستاذ الخولى فيما كتبه مؤيداً لرأى تأثر الفقه الاسلامى بغيره ، وكان الأستاذ على الطنطاوى فى مقاله منكراً كل الانكار أن يكون الفقه الاسلامى مأخوذاً من الفقه الرومانى ، وتشاء الرسالة أن تعلق عليه بأن هناك فرقاً شديداً بين التأثر والأخذ

وعلى تسليم صحة الفرق بين التأثر والأخذ فمحصل كلام الأستاذ الطنطاوى إنكارهما معاً والجزم بأن ذلك فى زمن العلم خرافة من الخرافات

هذه هى وجهات نظر هؤلاء الكتاب . ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ، وهو أن يكون فى أصل الفقه الاسلامى ومزاجه شئ من الفقه الرومانى .

غير أنه على الأول بوجه مباشر ، وعلى الثانى بواسطة الثقافة كما يقول الأستاذ الخولى

وموضوع مناقشتى الآن هو ما ارتآه الأستاذ أمين الخولى — من تأييد دعوى كولدزهير بأن الفقه الاسلامى متأثر بالفقه الرومانى . وقد كنت فى غنية عن كتابة هذه الأسطر لو كان الأستاذ على الطنطاوى — الذى أؤيده الآن — أسهب فى الموضوع ووفاه حقه من البسط والتدليل ، لكنه على قوة حجته نحا فى الموضوع منحى الايجاز والاختصار ، وذاك ما حملنى على أن أعود — على بعد الدار — للفت أنظار قراء الرسالة للموضوع مرة أخرى ، وبما أن مثار مناقشتى إنما هو ما كتبه الأستاذ الخولى أذكر أولاً ما قاله فى هذا الصدد قال : (. . ومع عدم تعصبى للقول بهذا التأثر ومع القصد فى بيانه فانى أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعى غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية ، فان متبع الكتاب والسنة لابد له من أن يفهمهما أو يتبين مراميهما وأغراضهما وعللهما وحكمهما ، ولكل شخص فى هذا الفهم والتبين عقله الخاص وشخصيته الخاصة ومنهجه الخاص ، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة ، فلا غرابة فى أن يتأثر منهم الفاهم للكتاب والسنة المتبع لهما تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه وظروف حياته كما تأثر بذلك تفسير القرآن فى كل الأزمنة ، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره ، ولا قيمة لحرصنا على هذا الانكار لأننا بذلك نقاوم سنن الله فى خلقه)

وقبل كل شى نقول إن الاسلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ من أبعد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقض لما عليه قومه ، مبايناً لهم فى عاداتهم وعقائدهم إذ وجد فى وسط بعيد عن العلم ، ودرج فى بيئة كلها شرك ، وجو كله خرافات وأوهام ، وبينما هو فى هذا المحيط المشبع بالشرك والجاهلية إذا هو ينهض بدين كله حكمة ، ونور يسفه الشرك وينبذ الخرافات ، ويدعو الى شريعة سمحة بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

ورداً على زعم التأثر نقول : إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد ، واستقيت من ينبوع واحد ، هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جميع الجزيرة العربية الى العراق وأطراف الشام ، ولم يلحق الشارع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء ، وهيأ لنا شريعة كاملة وقانوناً ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أى جيل ، وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء بعده شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله ، غير أنهم فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامى ، أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة ، وبعضها عن الكتاب مفسراً بالسنة ، فكيف يكون لكل شخص فيها فهمه الخاص وشخصيته الخاصة ومنهجه أو عقله الخاص ، متأثراً بالثقافة والبيئة كما يقول الأستاذ الخولى ؟ إن الكلام الصريح لا يحمل معنى غير ما يتبادر لذهن سامعه ، فاذا قلت مثلاً : لا تكذب فليس معناه الا لا تخبر بغير الواقع ، سواء كان ذلك فى القرن الأول للهجرة أو فى يومنا هذا فى القرن الرابع عشر ، وسواء أكان السامع متأثرا بثقافة عربية أو رومانية أو صينية فان يستطيع بعامل ثقافته وظرف حياته أن يزيد فى معناها شيئاً ، وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها من يعرف مدلولات الكلام العربى من مثقفى اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى عليه وآله وسلم فى ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف

ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير ، إذ لا يقاس بكتاب الله شىء لبلاغته وأسلوبه المعجز ، مع عمق معانيه وبعد أغراضه التى لا يستطيع حصرها واكتناهها فهم أو فكر ، وهذه فيه من أعظم الدلالات على إعجازه ، فهو لا يزال على الأحقاب والأجيال ينفحنا بمعانيه ومراميه بما يشرح الصدور ويقوى الايمان

على أن الاختلاف فى تفسيره وهو ما يراه الكاتب من تأثير البيئات — ليس إلا لا يجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية مما تاه لبعضه المفسرون الأولون ، فجاء الزمن يفسره ، فكان هذا

من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

ثم إن الفقه الرومانى الحديث على رغم أنه اختفى ثم اكتشف لم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد . أما قبل الحادى عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم

ولا شك ان الفقه الاسلامى قد قرر وصنف قبل ظهوره بقرون ، فكيف يكون متأثراً بشىء لما يوجد بعد ؟ وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم ، ومنهم مالك والشافعى وأحمد وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى الخ درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم ؟ أليست هذه مهزلة مضحكة ؟

ولقوى هـذا كله أنه محال أن يكون الفقه الاسلامى متأثراً بالفقه الرومانى فضلاً عن أن يكون مأخوذاً منه ، وسنبين بالبراهين القاطعة أن القوانين الرومانية هى المتأثرة به

الفقه الرومانى هو المأخوذ من الفقه الاسلامى

وإذا سقط احتمال تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى ، فاذا كان هناك تشابه بينهما فالمرجح بل المحقق أن الفقه الرومانى هو الذى أخذ مباشرةً عن الفقه الاسلامى . وقد كتب أحد علماء العلويين الحضارمة مقالاً فى هـذا الموضوع وفاهُ حقه بعنوان : من أين أخذ الأفرنج قوانينهم ، نشرته مجلة النهضة الحضرميـة قال فيه ما ملخصه :

إن دعوى اختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره بعـد ستة قرون أكذوبة لامرية فيها ، وقد كان الفقه الرومانى معروفاً ، وهو أشبه شىء بالفصول المضحكة . أنظر تاريخ الدولة الرومانية للعالم جيبون الجزء ٤ صفحة ٥٢٧ ، وذكر أمثلة من معاملاتهم ثم قال : بمثل هذه المحاكمات القاسية كانت تجرى الأحكام لغاية القرن الحادى عشر ، ولم تتبدل إلا فى الثانى عشر أو الثالث عشر . وقد قال ابن تيمية فى القول الصحيح : (إن النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضى بينهم بشرع المسلمين إذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به بين الناس ، وليس فى الانجيل حكم عام ، بل عامته الأمر بالزهد)

فكيف يصح أن ينسب هذا الفقه المشابه للفقه الاسلامى الحكيم بزعمهم الى أمة معروفة ، ولها فقه شائع معروف ، وكله قسوة وهمجية ؟ وكيف يسوغ عقلاً لأمة عظيمة أن يضيع عليها فقهها جملة ، ويبقى غائباً عنها طيلة قرون عديدة ثم يعود الى الظهور ؟ هل يصح هـذا إلا إذا صح أن تضيع عن أمة عاداتها وأخلاقها ودينها جملة ؟

ثم إن حكاية اختفائها وبروزها فى القرن الحادى عشر لم يقل بها غير هولود نيكوس سـنة ١٥٠١ م . ثم راجتْ ، انظر جيبون ٤ صفحة ٥٥٥ ، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة ، فقد قال القانونى الشهير سافينيه : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها الى اليوم من غير انقطاع اه . ويعنى بها القوانين القديمة المتقدم ذكرها . وبهذا وذاك تدحض دعوى اختفاء الفقـه الرومانى ثم ظهوره . ويتضح أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع ، وضعها بعض علمائهم مقتبسةً من الفقه الاسلامى وتبريراً لها عنـد العامة انتحلوا اختفاءها وظهورها كسراً لتعصبهم

أما أدلـة أخذ القوانين الرومانية من الفقه الاسلامى فهى :

(أولاً) ما قدمنا من إقرار الأفرنج بفضل الفقه الاسلامى وإعجابهم بأحكامه ، ونصبهم فى بعض بلادهم قضاة يقضون به كما نقل ذلك العلامة ابن تيمية

(ثانياً) إن الفقه الاسلامى ، كما قدمنا ، قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية الحديثـة من اختفائها المزعوم ، فلم يبق بد من أحد أمرين : إما أن يكون الفقـه الاسلامى قد تأثر بها قبل وجودها وظهورها ، وهذا محال ، أو تكون هى المأخوذة عن الفقه الاسلامى ، وهذا هو المعقول والمنقول

(ثالثاً) ما نقله العلامة العلوى الذى اعتمدنا على ما كتبه فى مقالنا هذا قال : نقل العلامة المحقق الأستاذ الجرفادقانى الايرانى فى مقالة له فى هذا الموضوع عن مجموعة للعالم الباحث مفضل بن رضى الفراوى الاسفارنكى (وفراوة كورة من خراسان بين

شهرستان ومرو) فيها رسالة فى شرائط كمال الفقه للفتوى قال : كتب أبو العباس الكركرى من تلامذة بهمنيار ، وهو تلميذ الشيخ الرئيس ابن سينا ، فى رسالته الى مفتى مرو أحمد بن عبد الله السرخسى فى معنى كمال الفقه : إن أبا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل فى تعليقاته على النهاية : إن طلبة العلم من الأفرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم ، اهتموا كثيراً فى نقل الفقه الاسلامى الى لغتهم لعلمهم يستعملونه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصاً فى المائة الرابعة والخامسة من الهجرة ، فقد برعوا فى اللغة العربية ، ومنهم غربرت والبرت ، فانهما طلبا مساعدة العلماء لابراز مقصودهما ، وقد ساعدوهما حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهما اه ، وقال موسهيم الجرمانى إن غربرت المذكور كان مديناً فى معرفته لعرب أسبانيا ثم قال : (إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة . . من القرن العاشر فصاعداً) كما نقله الأستاذ العلوى المذكور آنفاً

هذه البراهين كلها تؤيد ما قاله الأستاذ على الطنطاوى من أن الفقه الرومانى جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامى ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم

ولست أرى دعوى تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى إلا مكيدة دبرها من يريد الطعن فى الاسلام بطريق غير مباشر مثل كولدزهير وأمثاله ، وتلقفها عنهم منا معشر المسلمين من لم يدرك مراميهم السيئة وأغراضهم العدائية ، وجعل يقررها كأنها قضية مسلمة لا تصادم عقلاً ولا ديناً ؛ وعجيب جداً أن تجد هذه الفكرة لها قبولاً فى مصر . وأن تطبع وزارة الأوقاف كتاباً فى الفقه على المذاهب الأربعة يأتى فى مقدمته تقرير هذه الفرية التى انتحلها كولد زهير وتأييدها ؛ وعجيب أن يأتى الأستاذ الحولى مستسيغاً لها بل مبرهناً ومؤيداً مطبقاً ذلك على قاعدة تأثير الثقافة والبيئة

وبعد ، فلم يبق مساغ لدعوى التأثر فى الفقه الاسلامى ، ولا مجال للريب فى بطلانها ، وأنها ليست إلا خرافة وفرية تلقفها بعض المسلمين ، وليست الا أغنية من تلحين مستشرق المبشرين

سنغافورة — صالح بن على الحامد العلوى

٢٢ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال سقراط : كفى يا سيبيس حديثاً عن هارمونيا (١) ؛ الهتكم الطيبية ، فما أحسبها قد أغلظت معنا الصنيع ، ولكن ماذا أقول لكادموس الطيبي ، وكيف أسترضيه ؟

قال سيبيس : أظنك واجداً سبيلا الى استرضائه ، فلست أرتاب فى أنك رددت حديث الانسجام بطريقة لم أكن أتوقعها قط . فقد أيقنت حينما تقدم سمياس باعتراضه أن ليس الى اجابته من سبيل ، فأدهشنى لذلك أن أرى قوله يخور فلا يثبت أمام هجمتك الأولى ، وليس بعيداً أن يلاقى الآخر ، الذى تدعوه كالدوس مصيراً كهذا المصير

فقال سقراط : لا يا صديقى العزيز ، فما ينبغى أن تُزْهَى خشاة أن تنطلق من عين خبيثة هذه الكلمة التى أوشك أن أنطق بها ، فلنا أن ندع الأمر بين أيدى من هم فى عليين ، حتى أدْنوَ ، على طريقة هومر ، فأختبر ما يتوقد فى عبارتك من حماسة ، وخلاصة اعتراضك باختصار هى ما يأتى : انك تريد أن يقام لك الدليل على أن الروح باقية خالدة ، وتظن أن الفيلسوف الذى يطمئن الى الموت إنما يركن الى طمأنينة فارغة حمقاء ، إذا هو ظن أنه سيكون فى العالم السفلى أوفر جزاء ممن سلك فى حياته سبيلا أخرى ، مالم يستطع أن يدلل على ذلك ، وأنت تزعم أن اثبات ما للروح من قوة وألوهية ، واثبات وجودها السابق لوجودنا فى هيئة البشر ، لايقتضى بالضرورة خلودها . فاذا سلمنا بأن الروح قد عمرت طويلا ، وأنها فى حالتها الأولى علمت وعملت شيئاً كثيراً ، فليس هذا الاعتبار دليلا على خلودها ، وقد يكون

(١) Harmonia الاءمة فى طيبة ، ويظهر أن لفظة harmony الأفرنجية ومعناها الانسجام قد اشتقت منها